نقولا ماكيافيلّى

الفصل السادس فى الجزء الأول من المجلدات السبعة تأليف المؤرخ البريطانى جون ادنجتون سيموندز بعنوان « الرينسانس فى إيطاليا » ، الطبعة الأولى صدرت سنة ١٨٧٥ وتلتها ثلاث طبعات ، وإحدى عشرة إعادة للطبعة الثالثة بالعدد الذى تحت يدى : ١٩٢٣ ، هو أهم ما قرأت فى كل مراجعى إيضاحًا لماكيافيلّى فى كتابه الأشهر وعنوانه : « الأمير » ، عالج فيه السياسى النابه موضوع الحكم ، لم أشهد وأطالع شيئًا أدق وأعمق منه .

ماكيافيلّى ، وهو يستعرض الصفات التى يقوم عليها نجاح حاكم ، حل أشكال كتابه بالتركيز على الأمير تشيزارى بورچيا . فإن أسوأ ما يقال عن إيطاليا القرن السادس عشر يجىء فى معالجة ماكيافيلّى ببراعة وصراحة عجيبة لحكم هذا العاهل المجرم ، لا تنديدًا بأخلاقه وسلوكه ، وإنما تسجيلا لطريقته فى الحكم اللا أخلاق ، هى المثل الأصدق لنجاح « الأمير » . ويرى الأستاذ سيموندز ، أن هذا المشرع العميق لدواع إنسانية استند فى دراسته إلى

الاقتناع بأن الناس أشرار . وماكيافيلّى يقول وهو يناقش الموضوع أمام الأمير : هل الآمن أن يكون الحاكم محبوبًا ، أو مخوفًا ؟ : الجواب : « الآمن أن يكون مخوفًا لا محبوبًا ، كلما توقف أمام الاختيار » . إذ يرى أن الناس فى الأغلب « لا عرفان عندهم بجميل ، ولا ثبات رأى ، وهم المخادعون ، يتحاشون الأخطار ويتعطشون للكسب . فإن كنت تخدعهم فهم معك ، يعطونك كل شىء حتى أطفالهم ، عندما لا تكون فى حاجة إلى شىء من ذلك ، إنما حين تلتمس المعونة فإنهم يخلون بك ، فالأفضل إذن ألّا تثق أو تصدق حبهم الخادع » .

وحذار أن يسىء الأمير إلى رعيته فى شرفهم ، أو ممتلكاتهم ، وهذه الأخيرة أهم من الأولى عندهم : « لأن الناس ينسون مقتل آبائهم ، بأسرع مما ينسون خسارة أموالهم ، ووضح ماكيافيلّى هذا فى شكل بديهية : إن كانت أغلبية الناس أهل سوء ، فإن من واجب الأمير – دفاعًا عن ذاته – أن يتعلم كيف يكون رجل سوء ، ويجب أن يعمل بهذا المبدأ كلما وضحت ضرورته ، مع الاجتهاد فى كل الظروف أن يظهر طيبته » .

وفى الفصل الخاص « بكيف يحافظ الحُكّام على كلمتهم أو يوفون بوعودهم » . بدأ ماكيافيلّى التوكيد على أن « صراع الحياة فى حدود القانون عمل إنسانى ، وأن الاتكاء على القوة عمل وحشى . إنما يلجأ إلى هذا الأخير عندما لا يصلح الأول ، أى نعم ، ويجب على الحاكم أن يجمع فى شخصيته بين الإنسان والحيوان . وكان رائد

« أتيلّس » بطل الإلياذة ، يربى تلميذه على أن يكون حذرًا كالثعلب ، شجاعًا كالأسد . فبهذا يتجنب الشباك ، ويحتمى من الذئاب » .

والحاكم الواعى الحريص يجب « أن يتجنب المحافظة على وعده إذا كان فى الوفاء به ضر » أو عندما تفوت الفرصة التى وعد فيها . ولن يصعب عليه أبدًا أن يجد فى الوقت المناسب عذرًا بعدم الوفاء بوعده . وهو إذا تدرب على التظاهر فإن من اليسير عليه أن يخدع الناس » . ويتمثل ماكيافيلّى هنا بالبابا إسكندر السادس « والد الأمير تشيزارى » « إن إسكندر السادس لم يعمل فى حياته إلا بالخديعة ، بل لم يتجه فكره إلى غيرها ، ومع أنه من أكثر الناس حلفانًا على أنه ربط نفسه بما وعد ، فقد كان من أندرهم تنفيذًا لوعده » فيؤكد ماكيافيلّى : « لا ضرورة أن يكون الحاكم رءوفًا صادقًا ، أمينًا ، متدينًا ، عادلاً ، بل أقدم على القول بأن لو كانت فيه كل هذه الصفات ، ويعمل بمقتضاها دائمًا ، فإنّ فى ذلك مضرة به . ولكن عليه أن يظهر بهذه النّعوت ، وخاصة فى بداية إمارته ، إذ سوف يحقق استحالة الممارسة لهذه الفضائل ، لأن المحافظة على سلطانه تتطلب أن يعمل بضد الإنسانية ، وضد الرأفة واللين » .

ولا ينصحه ماكيافيلّى أن يكون شريرًا للشر . إنما هى الوسيلة التى تمهد له الدفاع عن مملكته ، لأنه سوف يَعْرِفُ متى يتخلى عن طريق الاستقامة . « واجبه ألّا ينطق بكلام إلّا وهو يتحدث عن هذه

الفضائل . وأن يبدو رحيمًا ، مخلصًا ، إنسانيًا ، منصفًا ، ومتمسكًا بدينه . وخاصة هذه الفضيلة الأخيرة » .

يكفيني هذا النموذج الذى يفسر نظر الناس إلى ماكيافيلّى ، وحتى دون أن يقرءوا كتابه « الأمير » . فقد ذهبت كلمة المكيافيلّية مثلاً ، بمعنى ما جاء فيما اخترته متفقًا مع سمعة ماكيافيلّى السيئة : وهناك من يدافعون عنه بقولهم إنه رأى ذلك الشيطان تشيزارى بورجيا قد نجح فى إمارته ، وفى سياسته اللا أخلاقية . فهو مجرد تقديم مثل حى لحاكم كان نجاحه كاملا فى حكمه ، وسلوكه إجرامًا فى إجرام .

ولكى أثبت أن ماكيافيلّى ، فيما عدا ماكتبه عن « الأمير » يعتبر من أقدر وأحكم الناس فى شئون السياسة ، أقترح أن أقدم نموذجًا أو أكثر من كتبه الأخرى لكى يجىء الحكم النهائى على أكبر عالم سياسى فى عصر « الرينسانس » ، وأوفر على نفسى سرد قصة حياته ، مكتفيًا بمعالم هذه الحياة فى سطور قليلة .

ولد عام ١٤٥٩ من أسرة ذات أصل نبيل ، وكانت فلورنسا جمهورية ويحكمها بالتوالى أعضاء أسرة الميديتشى .

وأعجب ما نوصف به حياة ماكيافيلّى أننا لا نعرف شيئًا عن نصف حياته الأولى ، فقد عاش ثمانية وخمسين عامًا (١٤٦٩ - ١٥٢٧) ، وتصور أن حياته حتى بلغ ٢٩ عامًا مجهولة أو تكاد . والأغلب أنه عاش من طفولته إلى رجولته فى أسرته ، وهى أسرة

نبيلة وإن لم تكن واسعة الثراء ، ويبدو أن دراسة ماكيافيلّى كانت جادة : حفظ اللغة اليونانية ، وتفوّق فى اللاتينية ، مما أهّلَه للعمل بدار الحكم « السنيوريا » ، أهّلَتْه وظائفه الأولى للتمرس بشئون الحكم ، وتعمق وعيه السياسى بالإطلاع على المؤرخين الكبار من اليونانيين والرومان ليستخرج من كتبهم شيئًا غير المبادئ ، وغير الفلسفة ، فلم يك رجل نظريات .

حياته فى الوظائف التى تولاها ، ومن أوائلها فيما ذكرناه أمانة « السنيوريا » (سكرتير مجلس الحكم) . وأوفد فى سفارات كثيرة إلى الإمارات والجمهوريات والممالك ، وقد أدرك شيئًا متفقًا مع طبيعته ، أيًا كانت طريقة الحكم ملكية أو أميرية أو جمهورية ، فالمهم الوسائل التى تجرى فيها الأحكام دون توقف أو تعثر. وأكدت التجربة لديه أهمية الظروف والتحركات والمواقف التى تجرى فيها ، فهذه هى التى تحدد مسار الأحكام ، فلاحًا أو خيبة ، ويدخل تحت هذا اختلاف الأجواء والأزمنة والشعوب . .

هذا هو التفسير الذى انتهى إليه ، اختزله من مجموعة تجارب وممارسات طويلة فى دويلات شبه الجزيرة الإيطالية . فتحقيق النجاح لا يجىء بمجرد التمسك بفكرة فى الحكم ، أو فى تنظيمه ، بل أن يستطيع الحاكم أو الأمير أن يوفق بين كل الظروف والطباع ، والأمكنة ، حتى يجىء حكمه متفقًا مع « وقائع الحال » ، بشرط ألا ينسى الأعيب القدر ، أو الحظ ، فإن دور هذه الظاهرة فى المجتمعات البشرية وفى الأفراد ، دور هام . ويتعين على الأمير أن

يتنبه ويمعن الفكر حتى يتمكن من معرفة الخيط الأبيض من الخيط الأسود . واستخدامى لكلمة « ألاعيب » هنا استخدام صحيح ، لأنى أشبه السياسة بالرياضة البدنية : فلاعبو الكرة مثلا ، مهما كانت مهاراتهم وحسن تصريفاتهم واستعدادهم ، فإن فى اللعبة ظروفًا تختلف وتتغير . فالأرض من طبيعة مخالفة لطبيعة أرض الفريق الزائر ، أو اليوم مطير ، وتشارك الرياح فيه اللعب بالكرة . وغير هذا من مصادفات القدر . وعلى رئيس الفريق – والمفروض فيه ألّا يكون أمْهَرَ لاعِبٍ فحسب ، بل يجب أن يكون لديه ملكة القيادة ، مع ذكاء متحرك بسرعة تمكنه من تغيير خطته ليتوافق فريقه مع تغيير الظروف .

ولهذا جاءت مؤلفات ماكيافيلّى ، وخاصة كتابه « الأمير » قادرة على الوقوف أمام الزمان والحدثان وقفة خبرة وعلم إيجابى ، وكأنها مجموعة وصفات لكل « وعكة » أو مرض سياسى خطير .

بعد ما عرضناه من الظروف التى وضع فيها ماكيافيلّى كتابه « الأمير » يحق لنا أن نعتبر كتابه كشفًا صادقًا عن فلسفته السياسية ، فقد كان فيها مُحَلِّلاً إيجابيًا كفئًا عرف كيف يحيط كلامه بحدود دقيقة حسب الموضوع الذى اختاره . وبالطبع لم يؤلف كتابه هادفًا الأخلاقيات بل أراد أن يضع بكل دقة علمية السلوك الذى يعتبره ضروريًا لنجاح حاكم فى سلطة مطلقة ، وجدير بنا أن نتقبل كلامًا من أعمق ماكتب وأصفاه لعرض المبادئ التى ترشد السياسيين الإيطاليين فى القرن السادس عشر . وإذا كانت الفعال التى جرت بها

هذه السياسة توصف بالماكيافيلّية فلنعلم إذن أن الماكيافيلّية موجودة قبل ماكيافيلّى ، وأمامنا أمثلة كثيرة فى إمارة الفيكونتى بميلانو . وحكم لويس الحادى عشر فى فرنسا ، وفرديناند الكاثوليكى فى أسبانيا ، ومجلس العشرة فى البندقية ، وفى «مشيخة» البابوية (الكُورِيَا) وهى مجموعة المؤسسات التى تؤلف الحكومة البابوية .

وطبيعى – بعد أن قرأ الناس كتاب « الأمير » على مدى العصور – أن « وَصْفَةَ » الماكيافيلّية تنطبق على هتلر وموسوليني وستالين ، وغيرهم من الطغاة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية (اللاتينية) لأن ما يجمع هؤلاء الحكام هو أنهم عملوا لمصلحتهم أولا ، وأكره المغالاة التى تفرض علىّ إضافة « وأحزابهم » ، كما يجمعهم أنهم يفصلون بين عملهم السياسى وبين أخلاقياته ؛ فكلهم لا خلاق لهم ، مادام هدفهم هو نجاح حكمهم بالعنف والغش والظلم والكذب والفساد ، ثم ينتقل منهم إلى الرعية بشراء الذمم والرشوة ، أو بالإغراء بعد التعذيب أو التهديد . والعجيب أنهم كلهم ، عندما لا يجدون فى قوانينهم المصنوعة على مقاسهم ، سبيلا لإجراء ما يتحججون وراءه وجدوا فى مصطلح جذّاب وكاذب ، حجتهم فى العسف والإجرام ، وهو « شئون الدولة العليا » ويترجم صحيحًا وحرفيًّا بمصطلح « القوة هى الحق » (مايت إذرايت) .

البطل الذى أعجب به ماكيافيلّى هو « الأمير » فى عنوان الكتاب ، واسمه تشيزارى بورجيا ابن البابا الإسكندر السادس .

أوفدت « السنيوريا » (حكومة فلورنسا) سكرتيرها (ماكيافيلّى) وسفيرها إلى « إيمولا » ليراقب أميرها تشيزارى ، للإفادة عن هذه المهمة . وسعد ماكيافيلى بهذه الفرصة التى كشفت له عن براعة هذه الشخصية وحدة ذكائها ، وهى أسوأ دبلوماسى عصرها فى ذمتها الخربة . شاهد ماكيافيلّى نجاح تشيزارى فى إدارة إقليم رومانية . فهو الحزم فى أشده ، مع قسوته الفظيعة ، ولقد حضر تنفيذ الإعدام فى رؤساء مؤامرة قام بها أورسينى وعصبته .

وأدلى إليه ابن بورجيا بطموحه ، وكشف له عن دوافع سياسته المتخفية وإجراءاتها فى ظروف متعددة . وماكيافيلّى يتساءل فى نفسه : من يا ترى يلعب بالآخر ، أنا أم هذا البورجيا ؟ ؛ إنما الذى عاد به من سياق الذكاء والحنكة السياسية ، كان صورة لأحسن نموذج وأكمله فى دراسة فنون الحكم . وانتهى إلى تلخيص تجربته العجيبة بقوله : إذا تأملنا فيما حقق البورجيا من منجزات فسوف نجد أنه أقام بناءً ضخمًا قويًّا لمستقبله السياسى « ومن لى به أن يعدنى بما أقدمه إلى أمير فى مطالع تقليده الإمارة » فكان هذا ما قدم به كتابه المشهور إلى أمير فلورنسا الشاب المديتشى .

تشيزارى لم يكن لديه ما يستفيد منه سوى أنه ابن بابا روما . فكان الأيسر له أن يجرب نفسه فى سلك الإكليروس . فعينه أبوه كاردينالا . ولكن بعد أن قُتِل أخوه الأكبر ، خلع الرداء الأحمر ، وأعلن استعداده لتقلد عمل سياسى . ومع أن أباه أصدر مراسيم بتعيين عشرة كرادلة فى يوم واحد ، فإنه طلب من المجلس المختص

(الكوريا) بأن يوافق على إقامة ابنه تشيزارى أميرًا على دوقية رومانية . ولكن ممثلى البندقية وميلانو «فى «الكوريا» رفضا الموافقة ، بالإضافة إلى حاجة البابا الماسة إلى سناد من أكثر الأسرات العريقة فى روما : أسرتى أورسينى وكولونا ، علمًا بأن الأسرتين تتحكمان كقُوَادٍ لكافة الجنود المرتزقة فى إيطاليا ، وهذا بالإضافة إلى كونهما نبلاء روما ، ولا يطيقون الاستسلام للبابا الفلورنسى وهو أسبانى الأصل . ولم يجد طريقة يكسب بها موافقة النبيلين إلّا بدعوة ملك فرنسا إلى إيطاليا ، وهو مدرك أن هذا الملك بحاجة إلى سلطة البابا للموافقة على طلاق الملكة زوجته مقابل حمايته لابنه شيزارى ، وانتهى الأمر إلى تعيين ابن البابا دوقًا على رومانية بمعونة ملك فرنسا وأسرة أورسينى .

واصل تشيزارى ببراعته ومؤامراته ومن بينها الاحتيال على حيازة ثقة الكاردينال الفرنسى ، وهو المسيطر على ملك فرنسا الشاب ، وبهذا تغلب على كبار أسرتى أورسينى وكولونا ، ووضعهم فى ركن بالحيلة والخداع ، فحين دعاهم إلى قصر سيجاليا ، وعزلهم عن حراسهم وأجنادهم ، أمر بإعدامهم خنقًا ، وبهذا تم له الاستيلاء على حكم مقاطعات فى وسط إيطاليا ، ثم جمع إلى إمارته البَدَنِيّة السيطرة الروحية بحكم أن أباه عينه كاردينالا ، كما أسلف القول ، وتحقق له أمران : خوف كبار الإيطاليين منه ، وتعلّق الشعب به ، ولن يقف تشيزارى عند هذا النجاح ، إذ كان يأمل فى امتداد سلطاته على الإمارات الإيطالية الباقية ، لولا أن حال بينه وبين

النجاح ملك فرنسا ، ولكن تشيزارى بورجيا عرف طريقه إلى اجتياز العقبات . وساعد على نجاحه وجود الإمارات الوسطى التى يحكمها بين ميلانو فى الشمال ونابولى فى الجنوب .

وآخر المؤامرات التى فكر فيها كان يتعلق بالمستقبل ، إذا توفى أبوه . ولهذا حرص على اللعب بالإكليروس حتى لا ينتخب بابا جديدًا إلا والحيطة منه معدة ، وآخر ما ارتكب من جرائم ، القضاء على كل أولياء العهد فى الإمارات التى يحكمها ، وضمن بهذا اختفاء من يمكن أن يتحزبوا عليه بحكم ولايتهم للعهد .

وقصارى القول يجىء فيما كتبه ماكيافيلّى تعليقًا على هذه الجهود والألاعيب « فالذى يشعر بالحاجة إلى حصانته وسط أعدائه ، والذى يتمكن من ضم أحلاف له بمختلف الوسائل بالمال ، والوظائف ، وبالقوة والغش ، لن يجد نموذجًا أقوى ازدهارًا من تشيزارى بورجيا » .

فقرات مختارة من كتابات ماكيافيلّي

معاملة المحكومين إما حيوانية أو إنسانية :

يجب العلم بأن هنالك طريقتين للحكم : إحداهما بالقانون ، والثانية بالقوة المطلقة ؛ الأولى جديرة بالإنسان . والثانية اختص بها الحيوان . غير أن الطريقة الأولى وحدها فى الأغلب ، لا تكفى فيضطر الحاكم إلى استخدام الثانية - ولهذا يتعين أن يكون قديرًا على ممارسة الحيوانية ، والإنسانية . وهذه قاعدة رُبِّىَ عليها الحكّامُ القدماء . بلغة مستورة ، ونعنى أن يستخدم الأمير الطريقتين ، لأن كلًّا منهما لا تقوم وحدها بل تحتاج إلى الأخرى .

وعلى الحاكم أن يحسن اختيار الحيوان المناسب لكل طريقة ، الأسد والثعلب ، فالأسد ليس عليمًا بالشِّباك حتى يتجنبها ، والثعلب قادر بحيله على تجنب الذئاب ، فالحاكم عليه أن يكون ابن آوى ويتجنب الوقوع فى الشراك ، وأن يكون أسدًا تهابه الذئاب - أما أولئك الذين يطمحون فى أن يكونوا أُسودًا فقط فإنهم لا يفقهون شيئًا . ولو كان الناس جميعًا طيبين لما كنا بحاجة إلى هذا وذاك ،

ولكن أغلبيتهم أشرارٌ يفرضون على الحاكم أن يكون ابن آوى ، إنما يتعين عليه أن يتسلم ويتدرب على إخفاء طبيعته هذه ، وأن يعتاد على الخداع والمراوغة مُتبسِّطًا والناس مطيعون للضرورات ، فلن يتعب الحاكم فى العثور على من يؤمنون بالمخادعة .

فن الحكم فى المظهرية :

عندى مثال حى أتمسك بالحديث عنه ، وهو أن البابا إسكندر السادس والد الأمير موضوع كتابى ، لم يصنع شيئًا سوى خداع الناس ومخاتلتهم . لم يفكر بغير هذا – مادام لم يجد دائمًا من يقعون فى الفخ . ولم يوجد رجل مثله فى القدرة على نوال الثقة بأقواله ، وسنادها بأغلظ الإيمان . وهو أقل الناس وفاءً بوعده وارتباطًا بيمينه وكان دائم النجاح بهذا السلوك ، وإتقانه ، ولا ضرورة ثمة للأمير أن يحظى بالصفات المفيدة ، فالأهم أن يظهر بأنه يملكها . وعلى الرغم مِنّى أجرأ على القول بأنه حتى ولو كان حقًّا يملكها ، ويعمل بها ، فإنها تعود عليه بالخسران . الظهور والتظاهر بها أهم من حقيقة وجودها . ويجب الفهم بأن الأمير – وخاصة فى بداية حكمه – مطلوب منه أن يمارس كل الشرائط التى تضفى عليه صِفَةَ (الطيبة) ، لأنه مضطر فى حكمه – إذا أراد المحافظه عليه – أن ينفذ ما يخالف وعوده ، وأن يعمل على الضد من الرأفة والإنسانية . المهم أن يتجه مع الريح ، مهما تغير اتجاهه ، مع الحرص على ألا يبتعد كثيرًا عن كرم الأخلاق بقدر الإمكان ، وبشرط أن يكون دائمًا على

استعداد لولوج باب الشر عند الضرورة ، والناس عموما يقيمون حكمهم على الأمير بالنظر ، لا باللمس ، كل العالم يرى الظاهر بوضوح ، القليل منهم تصل حساسيتهم إلى إدراكه لما يخفيه هذا الظاهر .

الأخطاء المطلوب تجنبها :

الحذر من الوقوع فيما يعرضه للحقد والاحتقار . وأكبر ما يثير البغضاء والكره هو اغتصاب الأملاك ، والاعتداء على نساء شعبه . فالغالب أن يعيش الناس قانعين هانئين إذا لم يعتدِ أحد على ملذاتهم أو على شرفهم . ولهذا يتبقى للأمير أن يعصف بالطامعين والطموحين ، وهم نوع من الناس يسهل التخلص منهم (أى تصفيتهم) .

ومن واجب الأمير أن يتجنب حكم الناس عليه بالطيش والخفة والتخنث ونقص الشجاعة ، وضعف الإرادة .

وأن يجتهد فى أعماله وإنجازاته بالظهور عظيمًا شهمًا ، جادًّا ، قويًّا ، وأن يظهر لهم ، فيما يختص بالمتآمرين أن لا نقض للأحكام التى تنزل بهم . وأن يسعى فيما يتحدثون به عنه ، أن يكونوا واثقين من أن لا يعلم إنسان بإمكان خداعه أو تجريحه .

العشرية الأولى للمؤرخ تيتوس - ليڤيوس :

لم أخرج فى مختاراتى من كتابات ماكيافيلّى عن الحيز اللا أخلاقى الذى اشتهر به الكاتب السياسى الأكبر فى عصر الرينسانس ، وكتابه عن « الأمير » هو مصدر هذه الشهرة . وأظنه أمرًا واضحًا أن صفة الماكيافيلّية فى السياسة هى من نتائج هذا الكتاب . وقد علقنا عليه بما فيه الكفاية .

وحان الوقت لأصحح كل هذا الحديث عن أهم دراساته السياسية والاجتماعية ؛ وهو الكاتب الذى وضعه النقاد فى طليعة الفلاسفة والسياسيين . لا فى عصره وزمانه ، بل فى كل عصر وزمان . وفات الكثيرين ممن كتبوا عن « الرينسانس » وعن ماكيافيلى أن يكشفوا عن أهمية ما يعرف ضمن مؤلفاته باسم « أحاديث من العشرية الأولى للمؤرخ « تيتوس - ليڤيوس » (وهو : تِيتْ - ليڤْ فى لغة الفرنسيس وتت - لِڤى عند الإنجليز) . إنها أحاديث أوسعت آفاق ماكيافيلى إلى درجة تفوق الوصف . وصدق من حكم على أن هذا أعظم مؤلَّف له . وتنشأ أهميته من أنه كشف لنا عن عمق تفكيره . وفى ذلك يقول أهم المعلقين الفرنسيين « چانجنيه » : « هذه أحاديث أسمى من كل كلام عن طغاة صغار فى إيطاليا الرينسانس ، أخرجهم من حسابه ، ليضع نفسه فى الوضع الصحيح كرجل ذى مبادئ سامية . وهو يحدثنا فى لغة حرص المعنون بمادة الكتابة أن يشغلوا تحليلها لغة وأسلوبًا . كما حرص المؤرخون أن يستخرجوا منها

خدماته كمؤرخ ، فى حين استمتع القراء بما أفاضه عليهم من تفاصيل الأحداث . وتخلّف القراء عن إدراك ما فيها من دروس سياسية ، تسمو على سرد وقائع جاءت فى نص تيتوس ليڤيوس ، فالمُهِمّ أنه اتخذ من نصوص العشرية الأولى (الديكاد) للمؤرخ الرومانى الكبير خلفية للتعليق عليها فى اثنين وأربعين ومائة فصل . واشتملت على مواضيع سياسية . وإدارية واجتماعية ، وعن إيضاحات فى الفن العسكرى . يؤكد كلامه بضرب أمثلة ، لا من عشريات تيتوس – ليڤيوس وحدها . بل هو يحدثنا عن وقائع وملابسات استخرجها من التاريخ الرومانى كله ، ومن التاريخ العام ، مستعينًا بشهادة زينوفون ، وتاسيتوس – إلخ ، وبتاريخ فلورنسا ، وسيرة البابوات ، وما جاء فى حوليات الإمبراطورية ، وفرنسا وأسبانيا .

ولقد تصفحت غير قليل مما كتبه ماكيافيلى فى ١٤٢ عشرية ، باحثًا عن واحدة مبسطة أقدمها للقارئ . فالأحاديث (ديسكورسو) كان يدلى بها بين خَوَاصّ وأصدقاء فى حدائق أوريتشلارى ، وكأنهم يتخيلون حدائق « أكاديم » فى أثينا ، بهذا الفارق : مداولات المفكرين فى شباب الأمم ، كانوا يعنون بالآلهة وبالروح ، وبالطبيعة ، وبأسرار الأبد . أما فى عصر النهضة والنضوج فقد كانوا يتجنبون الدراسات التجريدية فى جو حالم ، ويتابعون ما يرسم لهم طريق السؤدد ، فأقبلوا على وعى التاريخ والسياسة ، فهو السبيل الذى يضم الماضى إلى الحاضر ، فتحًا للمستقبل .

الكتاب الثالث – الفصل الثالث والعشرون
طرد كاميلّوس من روما

عندما تحدث المؤرخ تيتوس – ليڤيوس عن رجل الدولة والقائد كاميلّوس (ماركوس فوريوس) ، أشار إلى أن جنوده أعجبوا بسالته وحقدوا عليه فى الوقت ذاته .

والصفات التى اجتذبت إعجابهم كانت عنايته بجنوده ، وحرصه عليهم ، وسمو روحه . وجودة الإعداد والتنفيذ فى قيادة الجيش . أما الحقد فكان مصدره المغالاة فى العقوبة ، ومسك اليد فى المكافأة .

والمؤرخ تيتوس – ليڤيوس يرجع هذا الحقد إلى الدوافع الآتية :

أولا : فضل أن يضم ما جمعه من بيع ممتلكات الأعداء إلى احتياجات الدولة ، على أن يتقاسم وجنوده بقية غنائم النصر .

ثانيًا : فى الاحتفال بالنصر أسرج أربعة جياد بيضاء فى عربته ، مما آثار بين الجنود القول بأن كبرياءه الأرستوقراطى دفعه إلى التشبه بالشمس الطالعة .

ثالثًا : سحب غنائم الانتصار من الجنود ليقدمها لمعبد أبولّون . وكانت لا تزيد على عُشْر غنائم الظافر .

ويمكن الحكم على هذا السلوك بأنه أثار بغضاء الشعب ، إذ حرم الجنود من حقهم . وهذا فعل فاضح . لأن ما حبسه عنهم من خير تظل ذكراه حية فى نفوس المحرومين ، ولأن احتياجهم مهما يكن ضئيلا يكفِ للبقاء فى ذاكرتهم ويثار كل يوم .

إن الزهو والكبرياء نبع مرٌّ لحقد الشعب . وخاصة بين رجال أحرار . وحتى إذا لم يسبب هذا السلوك ضُرًّا لهم ، فإنه يظل مثار كره لصاحبه . وواجب القائد والزعيم تجنب هذه العثرة . فالوقوع فى شرك الحقد العام ، دون أن يجنى القائد منه فائدة هو عين الخسارة والطيش .

الكتاب الثالث – الفصل الرابع والعشرون

امتداد القيادات سلمت روما للعبودية :

إذا تأملنا فيما جرى على الجمهورية الرومانية ، فسوف نلاحظ أن سبب حلها مرجعه عاملان : الأول : الخلاف الذى نَشِبَ حول قانون الإصلاح الزراعى . والثانى هو مد الخدمة للقيادات . فلو أن المسئولين تنبهوا لكان من المستطاع إيجاد العلاج الناجع ، مما يطيل عمر الحرية ، ويقيم جوًّا من الهدوء .

ومع أن مدّ الخدمة للقيادات لم ينشأ عنه فى روما أى متاعب ظاهرة فإنّ النظرة الفاحصة تكشف عن الضرر الذى يلحق بالجمهورية من جراء النفوذ الذى اكتسبوه من امتداد سلطاتهم .

فلو كان امتداد السلطة جرى فى حدود معقولة وبين رجال فضلاء ، كما فى حالة القائد لوسيوس كوينتيوس ، لما تعرضت الجمهورية لما حل بها . فالفضيلة التى اتسم بها لوسيوس قدمت أمثولة ملحوظة . فعندما وافق الشعب على اتفاقية بينه وبين أعضاء

« السناتو » على مد خدمتهم عامًا ، كان الشعب يتوقع أنهم قادرون على مقاومة مطامع النبلاء ، وبما أن مجلس الشيوخ شاء أن يجارى الشعب فى مد أجل قنصلية لوسيوس كوينتيوس . فإن القنصل رفض هذا الإجراء ، قائلا بأن من الواجب القضاء على الأمثولات السيئة ، بدل المغالاة فى ارتكاب الخطأ وتكراره . وأصرّ القنصل على انتخاب أعضاء جدد .

فإذا كان لمواطنى روما رجاحة عقل لوسيوس ، وقوة شخصيته لما وصل الأمر إلى ارتكاب هذا الشطط ، بمد خدمات المشرفين بما يستتبع حتمًا امتداد مدة القيادة العسكرية ، وهذا هو الإجراء الذى انتهى بالقضاء على الجمهورية .

وأول إجراء لهذا المد تم فى قيادة بوبليوس فيلوس . وكان قائمًا بحصار مدينة هامة ، وقنصليته قاربت النهاية . ومجلس السناتو يَخْشَى من إفلات انتصاره ، وخاصة أنه لم يبعث إلى المجلس بطلب ، بإيفاد عضو من السناتو ليأخذ مكانه . وإذا بالمجلس يرقى بوبليوس إلى قنصل أول ، وكان أول شيخ يبلغ هذا المقام . فهذا الإجراء ، وإن كان فى الحق أملاه على الشيوخ باعتباره فى صالح الجمهورية ، فإنه بمضى الزمن انتهى إلى استعباد روما . فقد استمر الحال على هذا المنوال . وما دامت الجيوش فى مواقع حروبها تبعد عن روما ، فقد امتد الزمن فى هذا الخطأ ونشأ عنه نوعان من المتاعب : الأول – قِلّة عدد الموظفين الذين أُعْطُوا الفرصة ليمارسوا القيادة . والثانى – امتداد خدمة القائد أمدًا طويلا ، وعلى أبعاد شاسعة من العاصمة ، قدم

للقائد الفرصة بتوثيق العلاقة بينه وبين جنوده . فانتهوا إلى إهمال أمر مجلس الشيوخ ؛ ولم يعودوا إلى الاعتراف إلّا بقائدهم .

وكان هذا الأصل فى نجاح القائدين سيلّا ، وماريوس فى قيادة جيش لا يتردد فى اتباعهما ليقضيا على الجمهورية . وتبعًا لكل هذه الإجراءات تمكن يوليوس قيصر من استعباد وطنه .